قراءة متجددة في تطور الفكر السياسي
لدى الشيخ عبد الحميد بن باديس ما بين 1931/1940

أ.د/ : أحمد مريوش
أستاذ محاضر بالمدرسة العليا للأساتذة
بوزريعة

تهميد :

كتب العديد من المهتمين بتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، وافردوا الفصول الكافية للتيارات السياسية دون التركيز والاهتمام على دور ومساهمة جمعية العلماء في الفكر السياسي للجزائر المعاصرة، بل وذهب البعض من المهتمين بقضايا السياسة إلى إبعاد العلماء عن فعل السياسة معتمدا على احد البنود من القانون الأساسي للجمعية والذي جاء فيه : أن جمعية العلماء جمعية تربوية تثقيفية لا دخل لها في قضايا السياسة، ولذلك تركز اهتمام هؤلاء على دور الجمعية في الحقل الثقافي والاجتماعي والديني والتربوي دون مشاركتها في الفعل السياسي.

و لعل الاختلاف حول مفهوم السياسة من شخص لآخر، هو الذي جرد العلماء من الفعل السياسي، مع العلم أن الإسلام يشمل جميع جوانب حياة الفرد من عقيدة إلى أخلاق وسلوك اجتماعي لفرد والجماعة في السلم والحرب، كما يهتم بالأمور الشخصية من زواج وطلاق وميراث ويضع التشريعات الجنائية، ويقنن كل كبيرو وصغيرة في حياة المسلم، بل ويضع القواعد التي تسير عليها الأمة في المال والعلاقات الدولية وغيرها[1].

وقرأت لأحد الكتاب المهتمين بعالم الفكر وكان تعريفه أكثر شمولية لمدلول السياسة بقوله : السياسة هي الإدارة العامة لشؤون الناس، إما تفضي إلى عدل أوالى ظلم، والقرار السياسي في محصلته النهائية هو الذي يحدد طبيعة السكن الذي نسكنه، وطبيعة الطريف الذي نعبره، وطبيعة الجريدة

المنارة للاستشارات

التي نقرؤها، وطبيعة المذياع الذي نسمعه، وطبيعة التلفاز الذي نشاهده، وكمية الدراهم التي نحملها في المحفظة .. [2]

ومما سبق الإشارة إليه فالسياسة هي ذاك الكل المشترك الذي يجمع قضايا كثيرة تهم المواطن في حياته اليومية، وقد سئل أهد الفرنسيين ذات يوم عن مفهوم السياسة فقال السياسة هي حبة القمح التي نتغذى بها، وقد حاولنا من خلال هذه الدراسة أن نقف عند بعض المحطات الأساسية في الفكر السياسي لدى بن باديس، وهو يعد بحق المهندس الحقيقي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأنه ربط بين عالم الدين والدنيا وهل يحق لنا اليوم أن نقول عنه أنه العالم الرباني والزعيم السياسي كما أسماه مازن صلاح مطبقاني أحد المشارقة المهتمين بدراسة بالفكر الإصلاحي في الجزائر ؟

حركية التغيير لدى بن باديس بين خيار الإصلاح التربوي والفكر السياسي:

إن الدارس لشخصية بن باديس يجدها مفعمة بالمواقف والعبر، وكان الرجل يعد بحق من رواد النهضة الجزائرية والمهندس الحقيقي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تلك الجمعية التي ملأت فراغا كبيرا في مرحلة مبكرة من عمر الحياة السياسية في الجزائر، ولو أنها حددت من الوهلة الأولى لعملها الرسمي، على أنها جمعية تربوية دينية لا دخل لها في شؤون السياسة ،لكن ممارسة عملها في الميدان وتطبيق مبادئها جعلها تكشف بشكل أو بآخر أن عملها لم يكن بعيدا عن قضايا السياسة، وكانت السياسة في مفهومها الباديسي هي خدمة الجزائر ككل متكامل آخذة لجوانب متعددة بعيدة عن الحزبية الضيقة المقيتة، ولذلك كلن كل ما ذكر أسم الجمعية يعني للعامة والخاصة مباشرة أسم الشيخ بن باديس، لما تركه هذا المصلح من أثر على القضية الجزائرية عموما، وعلى الميدان الإصلاحي في جوانبه التربوية والاجتماعية والدينية وحتى السياسية على وجه الخصوص [3].

وإذا كان البعض من المهتمين بالحركة الباديسية يؤرخون لبداية العمل السياسي للرجل منذ دعوته لعقد المؤتمر الإسلامي 1936 ،فهل الفكر السياسي

المنارة للاستشارات

كان غائبا عليه قبل هذه المرحلة ؟ من دون شك أن إبعاد السياسة هن الرجل يعد إجحاف في حقه، وتقزيم لنشاطه، والسياسة لم تكن غائبة عن نشاطاته منذ بداية العشرينيات وقد لمح لذلك في افتتاحية أول جريدة أصدرها هي المنتقد بقوله : باسم الله ثم باسم الحق والوطن ندخل علم الصحافة العظيم شاعرين بعظمة المسؤولية التي تتحمله فيه، مستهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحت عليه عاملون، وها نحن على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السير عليها لا مقصرين ولا متوانين راجين أن ندرك شيئا من الغاية التي نرمي إليها بعون الله ثم بجدنا وثباتنا وإخلاصنا وإعانة إخواننا الصادقين في خدمة الدين والوطن .. [4]

وهذا لا يعني من جهة أخرى أن الجمعية هي شخص بن باديس لفرده، بل هناك العديد من رواد الإصلاح الذين كانت لهم البصمات المميزة في حقل الإصلاح منذ العشرينيات ،وقد ساهمت هذه الفعاليات في محو وإزالة ما عالق بالذهنية الجزائرية من شعوذة وخرافات وملئها بالمقابل بما هو صالح للدنيا والآخرة، وقد تضافرت جهود الجميع للبحث عن الدواء بعد تشخيص للداء، وكان كذلك مع مطاع ربيع 1931 والإعلان عن تأسيس جمعية العلماء بنادي الترقي بالجزائر العاصمة عشية الاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر [5] ولو لا جدارة ومهنية وحنكة بن باديس لما انتحب رئيسا على الجمعية في غيابه .

إرهاصات تطور الفكر السياسي الباديسي :

من دون شك أن هناك العديد من العوامل التي أنتجت الفكر الباديسي، وهي ليست بالضرورة متوفرة لغيره من رجال الإصلاح، كونه عاش في مدينة قسنطينة ذات الشهرة والسمعة العلمية والتاريخية ما تفتقر إليها غيرها من المدن، وأن تنشئته بالمنطقة وسط هذا الزخم الخليط من المعمرين والأهالي أمده بالمعرفة الحقيقية عن طبيعة المجتمع الجزائري، هذا ناهيك

المنارة للاستشارات

عن مرجعية العائلة الباديسية التي تتمتع بسمعة دينية ومنصب الوظيف في الوسط القسنطيني، لذلك تربى وعاش بن باديس في بيئة لها خاصية من الجاه والعلم والشهرة والحظوة، وكل ذلك أكسبه ثقافة التحصيل والفهم والمعرفة، وقد انعكس ذلك ايجابيا على طبيعة ومهام إصلاحه ،و نوع من وسائل عمله حتى وصفه الكثير من الباحثين بصاحب بالنزعة التوفيقية [6] .

وكانت لرحلتي بن باديس العلمية إلى تونس والدينية الحجاز أثرهما الواضح في تكوينه الفكري تربويا وسياسيا، إذ عاصر العديد من الأحداث التي عرفتها تونس نتيجة تجديد الخطاب وظهور حركة النهضة وسيولة الحركة القلمية وبروز حركة الشبان التونسيين ودعاة التجديد [7] وقد تعايش بن باديس مع ذلك المستجد المتغير مثل المطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني وأخذه على علماء أفاضل أثروا فيه أبعد تأثير، ومن هؤلاء الشيخ محمد النخلي أستاذ التفسير، والشيخ الطاهر بن عاشور مدرس الأدب العربي ،و البشير صفر أستاذ التاريخ [8]، كما عاصر العديد من الأحداث بتونس ،و بالخصوص حادثة مقبرة الجلاز الشهيرة التي أثارت أحاسيس الزيتونيين وحركت مشاعر الوطنيين أمثال باش حمبة والقلاتي الجزائري الأصل وغيرهما [9] التي أثرت في نفسيته وافردها بالكتابة، وكل ذلك زاده وعيا سياسيا مشتركا للقضايا المصيرية لمنطقة المغرب العربي [10]

وإذا كان الرجل قد أخذ عما وجده في تونس، فإن رحلته إلى الحجاز قد أكسبه هي بدورها المزيد من التصورات عن حالة العالم الإسلامي وما آل إليه من تأخر تحت سيطرة الأجنبي، ويذكر الشيخ البشير الإبراهيمي أن فكرة تأسيس جمعية العلماء ولدت في الحجاز أثناء لقائه بالشيخ بن باديس [11] ويذكر في ذلك الصدد التميمي القيرواني خلال رحلته إلى الحجاز أنه التقى بالعديد من علماء الجزائر أمثال الشيخ حمدان حمدان الونيسي والبشير الإبراهيمي والطيب العقبي وعبد الحميد بن باديس وغيرهم من دعاة النهضة

المنارة للاستشارات

العربية الإسلامية [12] ولم يكن اللقاء حميميا فقط، بقدر ما كان يهدف إلى جمع الشمل ووضع تصور جديد لمرحلة قادمة، ومن تم فإن جمعية العلماء منذ ولادتها لم تحجم عن الخوض في قضايا السياسة التي رسمتها في برنامجها الإصلاحي، ولم تكن بالضرورة السياسة بمفهوم باقي الأحزاب والجمعيات الأخرى .

ولذلك يعد بن باديس المرشد والمربي والأستاذ والداعية والكاتب والصحفي والطبيب الاجتماعي الذي راهن على تكوين الناشئة من أبناء الجزائر من خلال دروسه المنتظمة ،ويصف ذلك الجو المفعم بالتضحية والحيوية الشيخ علي مرحوم وهو من طلبته منذ 1932 بقوله "و إني لأتذكر الى الآن وقع كلماته المؤثرة على الأسماع وفعلها في النفوس والأرواح، فلا تبرح موضعها إلا وقد ازدادت يقظة ووعيا وإرادة في الخير.....و لذلك فإن أفضل ما كان يعتز به أستاذنا من جهاده في ميادين متنوعة ومجالات كثيرة هو هذه الدروس التي كان يبني الرجال المتحليين بأكرم الصفات من شجاعة وإخلاص وتضحية في سبيل الله والوطن ....." [13]

بل وكان بن باديس دوما يعد بالمفكر السياسي الوسطي ،و بحسب شهادة الشيح أحمد حماني وهو أحد طلبته ومن المحسوبين على المدرسة البادسية فإن بن باديس يعد مرجعا أساسيا لقضايا الجرائر خلال تلك الحقبة الهامة من التاريخ الوطني، وكلما استعصيت قضية ما أمام سير نشاط الجمعية التي كانت محفوفة بمخاطر الإدارة الفرنسية، إلا وسلم ذلك الأمر له للنظر فيها بكل ما يملك من حكمة ورزانة [14] .

ونحن هنا عندما نتكلم عن الفعل السياسي لدى بن باديس،فهو ليس وليد منتصف الثلاثينيات من القرن، بل نجد الرجل قد عمل بها بشكل أو بآخر من خلال كتاباته في جريدة المنتقد التي كان شعارها : "الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء "، وهذه رسالة مشفرة لخصومه الذين كانوا دوما غير

المنارة للاستشارات

مبالين بالمطالب الجزائرية [15]، وعلى الرغم من تأخر العمل السياسي المنظم حتى نهاية العشرينيات من القرن، إلا أن الرجل خاطب فرنسا جهرا وأن الشعب الجزائري وقف معها في الحرب العالمية الأولى وقدم أبناؤه قربانا لحريتها ولابد عليها أن تكون وفية للمواقف الجزائرية وأن تصغي لحقوقه المشروعة .

وكما أشرت سابقا فإنه من بين الوسائل الفاعلة التي وظفها هذا المصلح لتنوير العامة ونشر مبادئ الفكر الإصلاحي، الكتابة الصحفية وتأسيس الجرائد الناطقة بحركته مثل :جريدتي المنتقد والشهاب، وقد غيرت المنتقد في ظروف قصيرة من رؤية الجزائريين لحركة الإصلاح وكذا المطالب المقدمة للإدارة الفرنسية، مما أنب البعض ضدها وجلب لها المزيد من المتاعب وأشار بن باديس إلى ذلك بقوله : "ولكن آثار الذين اعتادوا التملق صدقها وكبر على الذين تعودوا النفاق صراحتها، وهال الذين اعتادوا الجبن من الرؤساء أو اعتادوا الجمود من الأتباع صرامتها، أجمعت هذه الطوائف أمرها فاخذوا يسعون في الوشاية ضدها وحمل الحطب للمراجع العليا لحرقها حتى عطلت ... " [16]

وعلى الرغم من تعطيل فرنسا للمنتقد، فقد أصدر بن باديس بذلها جريدة الشهاب التي حولها إلى مجلة شهرية سنة 1929وجعلها منبرا هاما لقضايا الجزائر وخصص لها ركنا سياسيا خاصا بقضايا الشمال الإفريقي، وكانت الشهاب من حيث المحتوى والعقيدة والاتجاه الإصلاحي والسياسي ثالث مجلة في العالم الإسلامي بعد العروة الوثقى للسيدين لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومجلة المنار للسيد رشيد رضا[17]

ومن الواضح أن الشيخ بن باديس كان صريحا في رده على الذين اتهموا العلماء بالتقصير في أداء الواجب، بل وهم لا يفقهون في الفكر السياسة ولا يستطيعون أن يسوسوا الأمة، وأشار إلى ذلك سنة 1933 بقوله:

المنارة للاستشارات

" ثم ما هذا العيب الذي يعاب به العلماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة ؟فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى ؟ وهل كانت الأكاديمية الفرنسية خالية من آثار الوزير القسيس رشليو؟ أفيجوز الشيء ويحسن إذا كان هناك ويحرم ويقبح إذا كان من هنا ؟ كلا لا عيب ولا ملامة، وإنما لكل إمرىء ما اختار ويمدح ويذم على حسب سلوكه في اختياره .. " [18]

وإذا كان بن باديس دوما على علاقته بهياكل الجمعية التي وصفها سعد الله بأنها أحدثت تحولات عميقة في الذهنية الوطنية وهزة كبيرة في المجتمع الجزائري برمته [19]، فإن نشاط ين باديس ازداد أكثر بعد خيبة الأمل التي أصابت رجالات الحركة السياسية في منتصف الثلاثينيات، لذلك نشر هذا الأخير بيانا مهما للأمة الجزائرية وللنواب على وجه الخصوص عبر من خلاله على الطرح الجديد الذي يوليه للقضية الوطنية، ولعل من بين العوامل التي جرته إلى كتابة هذا النداء في وقت مهم من مسار الحراك السياسي للحركة الوطنية وبالضبط في ماي من سنة 1936 نذكر ما يلي :

1/ تشخيص الداء ووصف الدواء وتمثل ذلك في المحاولة الجادة من الشيخ بن باديس الذي طلب من شركائه السياسيين والاجتماعيين عشية فشل قرار رينيه بضرورة البحث عن التقارب وأنه حان الأوان لرص الصفوف والنظر والإمعان بكل جدية في مصير حوالي ستة ملايين جزائري ما هم بفرنسيين ولهم كل الحقوق الفرنسية، وما هم بجزائريين وغبر عم ذلك بقوله :" من الضروري أن ينعقد مؤتمر بالسرعة العاجلة في العاصمة أو في أي مكان آخرــ وأن يجرى فيه نقاش واسع يستهدف من وجهة نظر سياسية البحث عن مصير ستة ملايين نسمة يعتبرون أحيانا فرنسيين دون أن يكون لهم من التمتع بالحقوق الملازمة لهذه الصفة، ويعاملون أحيانا كأجانب في بلدانهم ..... " [20]

المنارة للاستشارات

2 / زيارة وزير الداخلية الفرنسي رينيه للجزائر في مارس سنة 1935على رأس وفد هام لمعاينة الأوضاع في الجزائر، وكللت الزيارة بصدور قرار ريني المشئوم الذي زاد من اتساع الغضب في الوسط الجزائري سواء في الشارع أو بين النخب والجمعيات المختلفة [21]

3/ نشاط جمعية الزوايا وتحالفها مع النواب : لقد عرف عن الشيح بن باديس باعتداله مع الطرقيين خلال العشرينيات من القرن الماضي، ولكن التحول الذي طرأ على الحياة الثقافية والدينية والسياسية للجزائر بعد ذلك التاريخ جعل منه أن يعيد التفكير مليا في علاقاته مع الكثير من الطرقيين الذين نشروا الفساد وميعوا الدين الإسلامي، ومع ذلك فقد تعرض الرجل لمكائدهم ففي شتاء 1927 حاول أحد أتباع الطريقة العليوية اغتياله في قسنطينه [22]

ومع اتساع رقعة نشاطات الجمعية وكثرة أتباعها ازدادت مخاوف بعض الطرقيين وفضلوا تمتين الحالف مع النواب ضد رجال الإصلاح، وبالخصوص بعد المؤتمر الإسلامي الأول، إذ وسع محمد الصالح بن جلول من تحالفه مع رجال الدين الرسميين والزوايا والطرقيين، وفي أكتوبر من سنة 1936 عقد هذا الأخير بقسنطينة زردة كبرى أسمتها الصحافة بزردة القرن لم تشهد المدينة مثيلاتها منذ 1886 بحسب ما كتبته جريدة "لاديبيش دو كونسطانتين"[23] وقد تتبعت الكثير من الدوريات مجريات الحدث الذي أسماه عبد الرحمان بن العقون "بالزردة السياسية" وحضرها ما يربو عن العشرين ألف من شرائح مختلفة من سلطة فرنسية وكثير من النواب وشيوخ الطرق والزوايا، وقد حمل بن جلول على الأعناق في المسيرة [24] وكان هدفه من كل ذلك توسيع دائرة الزعامة والحد من المد الوطني بداخل الوطن، وبالخصوص بعد كشف العلماء على توجههم السياسي من جهة واتساع دائرة نشاط النجميين من جهة أخرى .

المنارة للاستشارات

4/ خيبة أمل جمعية العلماء في سياسة فرنسا التي كانت دوما تذر الرماد في أعين الجزائريين لا أكثر وقد عبر غن ذلك اليأس الشيخ بن باديس بكل مرارة بعد انقضاء سنوات عن تقديم الكثير من المطالب برغم الوعود المعسولة التي كانت إدارة الاحتلال تطمأن بها الشركاء السياسيين وقد عير ين باديس عن ضرورة المطالبة بكرامة الجزائريين بقوله :" إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا وفتحنا قلوبنا، فإن مدت يدها بالحب فتحنا قلوبنا وهذا هو المراد، وإن ضيعت فرنسا فرصتها هذه فإننا نقبض أيدينا ونغلق قلوبنا فلا نفتحها إلى الأبد....واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو إلا خطوة ووثبة ووراءه خطوات ووثبات، ويعدها إما الحياة وإما الممات " [25]

5/ بوادر الانشطار الذي لاح أفقه بين كتلة النخبة الليبرالية وخروج محمد الصالح بن جلول عن صف مكتب المؤتمر الإسلامي الذي تولى رئاسته، بل واتهامه للعلماء بالتحريض على القتل من جراء اغتيال الشيخ بن دالي عمر مفتي العاصمة والملقب بالشيخ كحول والموظف بالولاية العامة [26]

6 / سياسة الوالي العام" جورج لوبو "الذي تولى حكم الولاية العامة في 21 سبتمبر 1935 ومجيء حكومة" بيير لافال" في 7 جوان من نفس السنة، والتي امتازت بالمناورة أحينا وعدم الجدية في الاستماع للمطالب الأحزاب الجزائرية الوطنية أحيانا أخرى، ولو أن ذلك مكن العلماء من الحصول على اتساع من المناورة بصدور مولود إعلامي هام جديد باسم : جريدة "البصائر"في فيفري 1936 وبذلك تمكنت الجمعية من نشر أفكارها التحريرية في جميع أنحاء الجزائر وتبليغ الرسالة السياسية والثقافية والإعلامية بالداخل والخارج [27]، برغم سياسة الواجهة الشعبية الجانحة نحو الاعتدال في معالجة مطالب شعوب المستعمرات، ومن ذلك السماح للوفد الجزائري بالسفر إلى باريس بغرض التفاوض وتقديم عريضة المطالب التي نم هندستها في جوان بالعاصمة وحصول الوفد المسافر من حكومة باريس على بعض الوعود

المنارة للاستشارات

والضمانات وبريق الأمل في اتخاذ بعض الإصلاحات الفورية والنظر في أخري كما عبر عنها الطيب العقبي في خطابه بالملعب البلدي ببلكور بعد عودة الوفد من باريس في اوت 1936 [28]

ملامح ومضامين التحول السياسي في الفكر الباديسي :

احتوى مضمون النداء على جملة من القضايا نلخصها فيما يلي :

1/ تغيير وتيرة الخطاب ضد الآخر :

إن المتتبع لمسيرة بن باديس في معالجته للقضية الجزائرية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى وفاته في أفريل 1940 يلمس الكثير من التحولات التي طرأت على أسلوب خطابه في تعامله مع الكثير من القضايا المطروحة بنوع من اللباقة أحينا وبالمجاهرة والصراحة أحيانا أخرى، وكان مرد ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى ثقة الرجل فيها يقوم به من جهة وإلى استرجاع الثقة بالنفس من جهة أخرى بعد معاشرته اليومية للحياة العامة للجزائريين سواء أكانت اجتماعية أو دينية أو السياسية، وكذا تتبعه للمطالب الجزائرية التي ظلت تراوح مكانها على الرغم من مطالب التيارات السياسية المعتمدة التي لم تجد وزنها كالذي أصبحت عليه كتلة المنتخبين من النواب وهي طرف قوي في المعادلة السياسية لقوتها الاجتماعية من جهة، وما كانت تقدمه من خدمات للمصالح الفرنسية من أخرى، وتصدى بن باديس لجماعة النواب الذين يمثلون بني وي وي لا غير، ولا يمثلون الأكثرية من الجزائريين، وأن تمثيلهم لا يمس حقيقة المجتمع الجزائري، وقال في ذلك الصدد : إن هؤلاء المتكلمين باسم المسلمين الجزائريين والذين يصورون الرأي العام الإسلامي الجزائري بهذه الصورة، إنما هم مخطئون يصورون الأمور بغير صورتها .....فهم في واد والأمة في واد ويريدون أن يضعوا رجال الإدارة العليا في واد ثالث .... نحن نتكلم باسم قسم عظيم من الأمة، بل ندعي أننا نتكلم باسم أغلبية الأمة فتقول لكم ولكل من يريد أن يسمعنا،

المنارة للاستشارات

ولكل من يجب عليه أن يسمعنا إن أراد أن يعرف الحقائق لا يختفي وراء الخيال، نقول لكم إنكم من هذه الناحية لا تمثلونا ولا تتكلمون باسمنا ولا تعبرون عن شعورنا .....[29]

2/ عقلنة المنهج والتدرج من الجزء إلى الكل :

من الواضح أن بن باديس كان دوما على اطلاع بما تقوم به الإدارة الفرنسية من وضع لمشاريع تسمى إصلاحية، وهي في الواقع بمثابة ذر الرماد في أعين الجزائريين، ولعلها مشروع بلوم فيوليت الذي سال عليه الحبر الكثير، وعشية صدوره زارت الجزائر وفادة واتصل بعضها برجالات الجمعية لجس النبض، والتعرف عن قرب عن موقف زعماء الإصلاح، وكان بن باديس كغيره من العلماء ورجال السياسة يتابع التطورات والإجراءات التي كانت تراهن عليها فرنسا من حين للآخر لتهدئة الأوضاع في الجزائر، وكان يعايش أحوال المسلمين الجزائريين ويتابع اللجان التي كانت فرنسا ترسلها من حين لآخر وخص بالذكر اللجنة التي كان يترأسها موريس فيوليت ومن ذلك قوله : "ليست هذه اللجنة الأولى التي جاءت للبحث عن حالة المسلمين، ولكنها الأولى التي باشرت خطتها بكل حرية دون أن تكون الإدارة واسطة بينها وبين الناس، فكانت تستقي معلوماتها من مصادرها وتتصل برجال المسلمين مباشرة ..و قد تكررت لنا الوعود من رجال رسميين ومن وزراء على ذروات المنابر، وكانت كلها برقا خلبا حتى صرنا، والحق يقال قلما نقيم لوعد وزنا .[30]

وبقدر ما رحبت الجمعية بدفع عجلة الإصلاحات بقدر ما كانت متخوفة منها، واعتبرتها غير كاملة، وقد أشار بن باديس لذلك بقوله : " ولهذا اعتبرت بروجي بلوم فيوليت قليلا جدا بالنسبة لحقوقنا، وإنما نقبله اليوم كحظوة أولى فقط يجب بعد تنفيذها أن يقع الإسراع في بقية الخطوات إلى تحقيق التساوي

المنارة للاستشارات

التام العام الذي هو الشرط الطبيعي في سنن الاجتماع في بقاء الارتباط بصفاء وإخلاص... "[31]

3/ تقوية المرجعية الذاتية وتغليب المصالحة الوطنية :

من دون شك أن ثقافة بن باديس الدينية ومعايشته للواقع الجزائري المرير قد عززت في تكوينه الشخصي قوة وعزيمة الثقة بالنفس والاعتماد على الذات الوطنية، وكان دوما يقول لطلابه :"إن الأمة الجزائرية لم تزل حية طالما أنها محافظة على دينها ولغتها " ولذلك اعتمد في مشروعه النهضوي على ترجيح أسس توظيف القدرات الذاتية الوطنية كمرجعية لإثبات الوجود الجزائري، وقد عبر عنها في الكثير من المرات بالإسلام الذاتي وشرحها في خانة المبادئ السياسية التي ترتكز عليها عمله بقوله : فلأننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو إلى كل كمال إنساني ونحرص على الأخوة والسلام بين شعوب البشر وفي المحافظة على هذه التقاليد وهي من أهم مقومات قوميتنا وأعظم أسباب سعادتنا وهنائنا لأننا نعلم أنه لا يقدر الناس أن يعيشوا بلا دين وأن الدين قوة عظيمة لا يستهان بها ... [32]

وقد أشار بن باديس في الكثير من المناسبات إلى تحكيم العقل وتغليب المصلحة العليا للوطن فوق أنانية الطرف الآخر، وشرح ذلك في خطبة لصلاة الجمعة ألقاها في الجامع الأخضر سنة 1937 وهي عبارة عن تذكير وتوضيح للأصول والمبادئ التي رسمتها جمعية العلماء ومما جاء في أخذ نقاطها قوله : " عند المصلحة العامة من مصالح الأمة، يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التآزر والتكاثف حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة بإذن الله ثم بقوة الحق وادراع الصبر وسلام العلم والعمل والحكمة "[33]

4 / الأخذ بمبدأ الوطنية الإسلامية: لقد وقف بن باديس كثيرا حول مفهوم مصطلح الوطنية الذي رفعته الكثير من التيارات السياسية، وقسمته إلى أربعة

المنارة للاستشارات

أقسام، بحسب ما ذكره هو فالأول قسم لا يغرفون إلا أوطانهم الصغيرة وهم أنانيون، وقسم يعرفون وطنهم الكبير فيعملون في سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه، ولو بإدخال الضرر على الأوطان الأخرى، وقسم زعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر وأنكروا وطنيات الأمم، وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلها وانزلها منازلها، وهذا الرابع هو الوطنية الإسلامية العادلة إذ هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها وعلى الأمة بجميع مقوماتها وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها [34]

5/الإقرار بالتعاون مع كتلة النواب كشركاء سياسيين :

إن الدارس لعلاقة بن باديس مع النخبة ليست وليدة مرحلة جمعية العلماء، بل هي أقرب من ذلك، وكانت للشيخ علاقات وطيدة مع عائلة بن جلول في قسنطينة بحكم القرابة مع العائلة والتشابه في المرجعية الدينية وكان لكل منهما زاوية بالمدينة ومكانة كليهما في المجتمع القسنطيني وحتى لدى الإدارة الاستعمارية التي حاولت توظيف كل منهما في خدمة استقرارها بالمنطقة .

ومن تم كانت علاقة الرجل مع هذه الجماعة تسير وفق حبل رقيق، وكان بن باديس يرى في فتح الآفاق مع النواب بمثابة البحث على نافذة لتوصيل المطالب الجزائرية إلى الحكومة الفرنسية من خلال المجالس المنتخبة .وكان دائما يردد قوله : الإفصاح بكلمة حق ولو كان ذلك أمام سلطان جائر، وغازل في الكثير من الأحيان النواب على دفعهم لقول كلمة حق وتوصيل المطالب الفعلية للإدارة الفرنسية وذلك ما يسهل تغيير المواقف وقد عبر عنها بن باديس بالوحدة السياسية بقوله:" الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقتها مع غيرها من الأمم وتتعاقد على تنفيذها وتكون كلها في تنفيذها والدفاع عنها كما كانت حرة في وضعها [35]، وقد علق مرة على مطالب حزب الشعب بأنها نحتاج إلى سقف

المنارة للاستشارات

بقوله : وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل أن يتركه بدون سقف وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال[36]

6/ **الأخذ بمبدأ حتمية تقرير المصير ورفض التجنس :**

من دون شك أن الفكر الإصلاحي الذي دعا إليه بن باديس كان تحرريا بالمفهوم الجيد والعميق للكلمة، والتحرر في مفهومه هو استرجاع الذات الوطنية أولا قبل الوصول إلى تحقيق استرجاع الوحدة الترابية التي كانت بعض الأحزاب الأخرى تطمح لتحقيقها وخصوصا دعاة التوجه الاستقلالي منذ مؤتمر بروكسل 1927 إلى مؤتمر باريس 1933 وظهور برنامج النجم في عصره الذهبي، ومن دون شك أن حركة التحرر وتقرير مصير الشعوب التي ناد بها الرئيس الأمريكي ولسون لم تكن غائبة عن ثقافة بن باديس، علما وأن الأمير خالد نقل انشغالات الجزائريين وقتها إلى مؤتمر الصلح سنة 1919 الذي احتضنته باريس، ويعد بن باديس من أكبر المعجبين بالأمير خالد، وكتب عنه مرثية في الشهاب أشاد بها بخصال الرجل الوطنية وقومية الإسلامية.[37]

ومنذ 1930 أصبحت مسألة التجنس قضية الساعة وكتب عنها الكثير من رجال الإصلاح منهم العقبي وتوفيق المدني ومبارك الميلي وابو يعلى الزواوي والسعيد الزاهري وغيرهم، وكانت لبن باديس رؤيته ونعت أولئك الذين يتخلون عن التشريع الإسلامي بالمرتدين وقد أكدت الشهاب في 1935 بأن الخمسة ملايين مسلم الجزائريين لا يقبلون بالتجنس ولا بأي حق يمنح تحت شرط التجنس، فهم يفضلون الموت فقراء محرومين من كل شيء عوض العيش متنكرين لوطنهم[38]

ومن دون شك أن تشابه أساليب الاستعمار الفرنسي في تعامله مع المطالب الجزائرية كانت سببا كافيا في تعميق ثقافة وقناعة خيبة الأمل للكثير من مريدي السياسة وهي مؤسسة لمرحلة تقرير المصير الذي أصبح يمثل

المنارة للاستشارات

القضية الشبه مفصول فيها بالنسبة للكثير من التيارات الوطنية بما فيها تيار الإصلاح .

7/ كتابة العرائض ونشر النداءات :

إن الدارس لعلاقة بن باديس مع الآخر وتحديدا من السلطة الفرنسية يجدها اتسمت بطابع الليونة في السنوات الأولى لمرحلة العمل الإصلاحي، ولكنها تغيرت بعض الشيء بتطور الحياة السياسية في الجزائر وخصوصا بهد دخول نجم شمال إفريقيا إلى الجزائر بقوة منذ 1936، مما جعل الشيخ بن باديس ورفاقه يجنحون هم أيضا نحو الصراحة في طرح القضايا وتقديم الشكاوى والعرائض إلى الإدارة الفرنسية بغرض الممانعة ومطالبة فرنسا بالحقوق المشروعة .

ونحن هنا لا يمكن التطرق **إلى** جل العرائض التي أرسلها الرجل أو الخطب التي أوضح من حلالها ضرورة مسايرة الحركة السياسية في الرفع من مطالبها سواء معتدلة كانت أو راديكالية، ونقدم في هذه الدراسة النداء الذي قدمه ين باديس إلى الأمة الجزائرية وإلى النواب من أجل بداية حلقة جديدة في ثقافة التعامل مع الآخر وتحديدا الإدارة الاستعمارية، وذلك في سبتمبر من سنة 1937، وقد احتوى النداء على أبعاد كثيرة نذكر منها :

1/ انتهاج سياسة الإخلاء ثم عملية الملء :

اعتمد ين باديس خلال هذه المرحلة على إتباع سياسة الإخلاء ونبذ كل ما هو غير مرغوب فيه من سلوكيات الطبقة السياسة إلى رفض القوانين الفرنسية الجائرة وبالمقابل تعويض كل ذلك بالمطالبة بحقوق الجزائريين المشروعة، وفد أشار بن باديس إلى ذلك في قصيدة تحمل في أبياتها دلالات وطنية هامة أنهى بها محاضرته في نادي الترقي سنة 1937 بقوله :

أشعب الجزائر روحي الفدى لما فيك من عزة عربية

بنيت على الدين أركانها فكانت سلاما على البشرية

المنارة للاستشارات

خلدتم بها وبكم خلدت بهذه الديار على الأبدية
فدوموا على العهد حتى الفنا وحتى تنالوا الحقوق السنية
تنالونها بسواعدكم وإيمانكم والنفوس الأبية
فضحوا وها أنا بينكم بذاتي وروحي عليكم ضحية [39]

والمتتبع لأعداد جريدة البصائر منذ منصف الثلاثينيات يجد بها الكثير من العرائض التي وجهت إلى السلطة الفرنسية بقلم بن باديس، وهي تحوي في طياتها الكثير من المطالب الجزائرية وهي معبرة عن ظلم وغطرسة ساسة الولاية العامة، وسوف نورد عينة من هذه العرائض ففي شهر ماي من سنة 1938 أرسل بن باديس برقية احتجاج بعنوان :" لانديجينا الجديدة " إلى كل من رئيس الوزراء ووزير الداخلية والوالي العام يحذر فيها السلطة من جراء المنشور الذي يحث على مضايقة وإلقاء القبض على طلبة الجمعية، ومما جاء فيه قوله :أرفع احتجاجي الشديد ضد المنشور الذي أبلغ به الوالي العام لولاة التراب العسكري ألقاء القبض على كل طالب منتسب لجمعيتنا، أنبهكم بكيفية خاصة إلى الخطر العظيم الذي يهدد سكان تلك الناحية والمتجولين بها من جراء هذا المنشور الذي فتح على مصراعيه باب المظالم والاعتداءات المختلفة ....." [40]

2/ العمل بالإشراك الشمولي لمعالجة وضعية الجزائر:

لقد تغيرت نظرة بن باديس لإصلاح شأن الجزائر بتطور الأحداث، وعمق من فكره الإصلاحي ليتجاوب مع كل مستجد، شريطة إشراك الطرف الجزائري الممثل في النواب والقريب من الحدث في التجاوب للمطالب الوطنية، وجاء في ندائه :" أيتها الأمة الكريمة أيها النواب الكرام، اليوم وقد يأسنا من غيرنا يجب أن نثق في أنفسنا ..... اليوم وقد خرست الأفواه عن إجابة مطالبنا يجب أن نقول نحن كلمتنا " [41]

3/ البحث عن الشخصية القوية لدعم الكفاح الوطني :

المنارة للاستشارات

لقد ركز بن باديس في ندائه على قضية حساسة جدا وهي رفض الاستعمار للقيمة الجزائرية يقابلها بالضرورة المطالبة بتأكيدها والبحث عنها، وأن جهل الآخر يعد تهميشا للفرد الجزائري وعدم الصياغة لمطالبه، مما يحتم أعادة الاعتبار للذاتية الجزائرية وذلك بقوله : " اليوم وقد تجوهلت قيمتنا يجب أن نعرف نحن قيمتنا "[42]

كما أن الرجل دوما حريصا على البحث عما يتولى أمور القيادة ويسوس الأمة مستقبلا كي تتخلص من الإرث الاستعماري وقد حدد بن باديس في تولى الزعامة جملة من الشروط والمقاييس التي تؤهل صاحبها لذلك بقوله: فلا يصلح لقيادة الأمة وزعامتها إلا من كان عنده من بعد نظر وصدق الحدس وصائب الفراسة وقوة الإدراك للأمور قبل وقوعها، مما يمتاز به عن غيره، ويكون سريع الإنذار بما يحس وما يتوقع ...." [43]

وقد عبر توفيق المدني عن طموح الرجل بقوله: "كانت دروسه نارا، وكانت دروسه نورا، وكانت كلماته تخرج من فمه وكأنها إلهام تستقر في قلوب الشباب المؤمن فتدفعه إلى المعالي وتذكره دوما واستمرارا بأنه سليل خير أمة أخرجت للناس ...."[44]

4/ تأكيد القطيعة مع الخيارات الفرنسية الغير منصفة:

كان طرح بن باديس واضحا في تأكيد القطيعة مع سياسة الاستعمار الغير عادلة من القضية الجزائرية، وقد أشار إلى ذلك بقوله : "حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة ترى أكثريتها ذلك كثيرا علينا، ويسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا ويجرح أعز شيء لدينا "[45]

ومع تتابع الأحداث تيقن بن باديس كغيره من الكثير من رجال السياسة والمجتمع المدني أن تحقيق مطالب وقضايا الشعب الجزائري تحتاج إلى الحبكة القوية والإمعان في المعالجة والشفافية في الصوف، وكان واضحا

المنارة للاستشارات

جدا في تحديد مواقفه من قضايا الجزائر ومن المعالجة التي تطرحها الإدارة الفرنسية من حين لآخر، ولذلك لا غرابة أن نجده وكأنه يضع لنفسه عهدا جديدا لتطوير النضال والمقاومة ويكشف من خلاله أهمية الفداء والتضحية وتقديم النفس وهي صفات محمودة تستلهم منها الأجيال العبر وتؤسس لمرحلة هامة من الكفاح وتواصل الأجيال، وذكر بذلك في قصيدة مطلعها :"أشهدي ياسما" ألقاها في حفل أقامته جمعية التربية والتعليم بقسنطينة في مناسبة 27 رمضان من سنة 1937، ومما جاء فيها فوله :

أشهدي ياسما واكتبن يا وجود
أننا للحمى ستكون الجنود
فنزيح البلا وتفك القيود
و ننيل الرضى من وفى بالعهود
و نديق الردى كل عات كنود
فيرى جيلنا ذكريات الجدود
و يرى قومنا خافقات البنود
و يرى نجمنا للعلا في صمود
فتضم اسمنا صفحات الخلود
هكذا هكذا هكذا سنعود
فاشهدي ياسما واكتبن يا وجود
إننا للعلا أننا للخلود [46]

5/**الدعوة الصريحة إلى المصالحة الوطنية ومع الذات ومع الآخر على الرغم من بعض الاختلاف في الطرح**، باعتباره شريكا سياسيا وقد عبر عن ذلك في ندائه الصريح بقوله :" تناسوا الحزازات، امحقوا الشخصيات برهنوا للعالم أنكم أمة تستحق الحياة ...." [47] وأنها لصحوة سياسية بارزة المعالم ،وقد نضجت أكثر عشية الحرب العالمية الثانية، ففي حفل تكريمي في صائفة

المنارة للاستشارات

1939أقامته جمعية التربية والتعليم بقسنطينة على شرف دفعة من الطلبة الجزائريين المتخرجين من جامع الزيتونة افتتح بن باديس الحفل التكريمي بخطبة دالة مشفرة مخاطبا بها جموع الطلبة المتخرجين، وأن الواجب الوطني ينتظر خدمة كل واحد منهم ومما جاء في خطابه قوله: " إنكم رجعتم إلى وطنكم تحملون شهادات علمية، ومن أجل ذلك كمنم جديرين بهذا التكريم، ولكن لا تظنوا أنكم ستجدون مصاعب الحياة قد أزيلت من طريقكم، يجب، يجب أن تعلموا يا أبنائي أنكم مقبلون غلى خوض معركة شديدة، من أجل خدمة أمتكم ووطنكم، بما أحرزتم عليه من علم وإذا كان أبناء الشقيقة تونس يدرسون العلم في الزيتونة ليصبحوا موظفين قي بلادهم، فإن فضلكم الوحيد هو أنكم تقرؤون العلم للعلم، وليس للوظيف، وهو فضل كبير، فكونوا عند حسن ظن أمتكم بكم، كونوا على استعداد لأداء واجبكم نحو وطنكم... "[48]

6/نبذ الأنا والاستفادة من الماضي لتحقيق المطالب الوطنية :

أشار بن باديس إلى ضرورة طرح البدائل والتصورات للوصول إلى الحلول، ونبذ الأنا وكذا الاستفادة من الماضي بغية تحقيق بعض الطموح، وعبر عن ذلك بقوله: اليوم وقد اتحد ماضي الاستعمار وحاضره علينا، يجب أن تتحد صفوفنا...هذا وأنا كمسلم جزائري قد أديت الواجب، والله المستعان على القيام ببقيتها..."[49]

7/ الفرز في المواقف :

لقد أضحى بن باديس مع منصف الثلاثينيات أكثر وضوحا في تحديد مواقفه من الكثير من القضايا الجوهرية المطروحة، ولعل ذلك ما أكسبه المزيد من الشعبية والاحترام وحتى لدى الطبقة السياسية والنخبة أيضا ومن أمثلة ذلك نذكر ما يلي :

المنارة للاستشارات

1/ زيارة بن باديس لفرنسا لتقديم مطالب المؤتمر الإسلامي :

حاولت الإدارة الاستعمارية الضغط على الوفد وتحديدا الجمعية الممثلة في رئيسها بن باديس، وبحسب ما ذكرته بعض الوجوه من طلبة الجمعية منهم الشيخ أحمد حماني وعلي المغربي ومحمد الصالح رمضان، فإن وزير الحربية الفرنسية الممثل في شخص " دلاديبه "خاطب ين باديس بقوله: إن فرنسا تملك من الأسلحة والقوة ما يجهلها نحافظ على أمنها، في حين أنتم تفتقرون إلي ذلك، فرد عليه بن باديس بقوله : إن لدينا مدافع أقوى من مدافعكم وهي مدافع الله .[50]

2 / زيارة بن باديس إلى تونس في صائفة 1937:

على إثر عودة الشيخ عبد العزيز الثعالبي من منفاه، وقد اهتمت الصحافة الفرنسية بالزيارة لما تركته من أثر على الطلبة والجالية الجزائرية المقيمة بتونس، وقد خطب الشيخ أكثر من مرة خلال تواجده بتونس ودعا إلى ضرورة الربط بين الدين والسياسة وكلاهما يكمل الآخر ومما جاء في إحدى خطبه قوله : وكلامنا اليوم عن العلم والسياسة معا، وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم تعودوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة، مع أنه لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم إلا إذا نهضت السياسة بجد ..." [51]

3 / بغضة للزعامة ومحاربته لثقافة الأنا :

تشير الكثير من الدلائل التاريخية أن الرجل لم يرغب يوما في الزعامة وحب الأنا، بل كان من المحاربين لذلك برغم ثقافة الإقصاء والتهميش التي عانى منها رجال الإصلاح من قبل الإدارة الاستعمارية من جهة والخصوم من رجال الطرق ورجال الدين الرسميين من جهة أخرى،

المنارة للاستشارات

والمتملقين والمتواطئين من النواب مع المعمرين وغلاة الاستعمار من جهة ثالثة .

و كان رد بن باديس واضحا في رده على هؤلاء من خلال إبرازه للمكانة التي يتبوؤها العلماء وكذا للأدوار التي يقومون بها في بناء صرح الأمة، لا على المستوى الديني فقط، بل تتعدى إلى الاهتمام بقضايا كثيرة أخرى بما فيها أمور السياسة وأشار إلى ذلك بقوله: " وهكذا فالإسلام لا يحجر على العلماء التدخل في أي شيء من الشؤون العامة، كما يزعم البعض في هذه البلاد، بل هم أولى من غيرهم بذلك وهم رعاة الأمة المسئولون وليس لغيرهم أن يستهجن فعلهم أو يلوموهم إذا هم قاموا بما يجب عليهم نحو أمتهم، وليس مهمة العالم في الإسلام قاصرة على التدريس والإرشاد فقط وبعد فقد كان العلماء في كل أمة وفي كل عصر إلا قادة الفكر والسياسة والدين ..."[52]

وقد أوضح بن باديس برنامج حركته الإصلاحية التي تربط بين الدين والدنيا منذ بداية الثلاثينيات، حتى يقطع الطريق أمام دعاة السوء، وكشف عن المبدأ الذي تتبعه الشهاب خدمة للأمة بقوله : " صراحة في الرأي وصلابة في الحق ورغبة في الخير، نعمل لصالح الأمة في دينها ودنياها، على نور الكتاب والسنة وهدى السلف الصالح، فتتمسك الأمة بإسلامها وعروبتها، وتحافظ على قوميتها وتاريخها، وتتناول أسباب الحياة والتقدم من كل جنس وكل لغة، وتعمل مع كل عامل لخير البشرية وسعادة الإنسان .."(53)

4/ موقفه من دعاة الاندماج :

بعد عودة بن باديس من باريس بعد تقديم مطالب المؤتمر الإسلامي طرأت تحولات كثيرة على مواقف الرجل تجاه سياسة الاحتلال ودعاة الجزائر فرنسية، وأصبحت مواقفه أكثر وضوحا من خصومه ودعاة سياسة الاندماج والتجنس، وشن هجوما شرسا ضد مطالب النواب الذين يسيرون في

المنارة للاستشارات

فلك فرنسا ويعتبرون دمج الجزائر ضرورة حتمية لتحقيق المطالب، وخاطب بن باديس هؤلاء بكلمة صريحة معبرة بقوله : قال البعض من النواب المحليين ومن الأعيان ومن كبار الموظفين بهذه البلاد إن الأمة الإسلامية الجزائرية مجتمعة على اعتبار نفسها أمع فرنسية بحتة لا وطن لها إلا الوطن الفرنسي، ولا غاية لها إلا الاندماج الفعلي التام مع فرنسا، ولا أمل في تحقيق هذه الرغبة إلا بأن تمد فرنسا يدها بكل سرعة.....بل قال أحد النواب النابهين(يقصد به فرحات عباس) أنه فتش في القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها من أثر، وفتش عنها في الحالة الحاضرة قلم يعثر لها على خبر، وأخيرا أشرقت عليه أنوار التجلي، فإذا به يصيح : فرنسا هي أنا .....إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها لا تريد أن تندمج ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة ..[54]

ومن دون شك أن كلمة بن باديس الصريحة قد قطعت الطريق نهائيا أمام المتملقين لسياسة فرنسا من الطرقيين والنواب ونحوهما، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك ورسمت معالم التوجه الجديد الذي يرغبه الرجل بصفته رجل سياسي محنك ووطني عالي الوطنية بمفهوم الوطنية الإسلامية التي ذكرها في الكثير من أحاديثه وكتاباته، وخلص في كلمته تلك إلى التأكيد على جملة من المعالم منها : 1 / إثبات كيان الأمة الجزائرية .

2 /إثبات الوطن بحدوده الدولية المغروفة .

3 /إثبات الشخصية المتفردة لهذه الأمة باللغة والدين والأخلاق .

4 / استنتاج استحالة كينونة الجزائر فرنسا، حتى ولو أرادت ذلك.[55]

وكان الرجل متبصرا بقضايا عصره حينما رسم معالم الوجه الحقيقي الذي تبنى عليه الجزائري وفق المرجعية الثلاثية المكونة من : الجزائر

المنارة للاستشارات

وطني والعربية لغتي والإسلام ديني، وكل طرف في المعادلة يوحي بمعلم أساسي فالجزائر وطني هو جغرافيا محددة ووطن معلوم ضرورة الحفاظ عليه، والعربية لغتي هي اللسان الذي جاء به القرآن الكريم وهي اللغة الرسمية للأمة الجزائرية، والإسلام ديني هو مصدر التشريع الذي تتوخاه الجزائر المسلمة .، وقد عبر سعد الله عن وزن الحركة البادسية بقوله: "ولكن جمعية العلماء التي تأسست سنة 1931 بزعامة عبد الحميد بن باديس كان لها الفضل في بعث الروح القومية والروابط الإسلامية مع المشرق وتحضير الشعب لغويا وفكريا واجتماعيا للاستقلال .."[56]

وعلى الرغم من ذلك كان الشيخ متفتحا على الآخر، ويذكر باعزيز بن عمر من خلال ذكرياته عن الإمامين الإبراهيمي وبن باديس، أن هذا الأخير حضر مؤتمر معلمي اللغة الفرنسية بقسنطينة وقدم خطابا بالمناسبة حث فيه على تظافر الجهود بين معلمي العربية والفرنسية في تكوين الناشئة ومما جاء فيه قوله :" إن على المدرستين العربية والفرنسية في الجزائر أن تتعاونا غلى توجيه أبنائها نحو هدف واحد وهو خدمة وطنهم ورفع شأن أمتهم .... "[57]

وكانت لإبن باديس العديد من اللقاءات مع رجالات الحركة الوطنية الجزائرية، ويذكر في ذلك الصدد الشيخ محمد خير الدين في مذكراته أن ابن باديس التقى بالزعيم مصالي الحاج بعد المؤتمر الإسلامي بالجزائر العاصمة، وقد كلف بن باديس خير الدين لترتيب اللقاء، ومما جاء قي ذلك قوله : "وعلمنا بوجوده (يعني مصالي الحاج) فطلب مني الشيح بن باديس أن أذهب الى مقابلته وأبلغه تحيته ورغبته في أن يتحدث إليه، وفي صبيحة الغد لبى مصالي دعوة الشيخ بن باديس، وحضرت أنا المقابلة، ومن جملة ما قاله الإمام في هذا اللقاء لمصالي الحاج : إن فرنسا متربصة بحركتنا الوطنية وتود القضاء عليها بأيدينا فتزرع فينا الخلاف والشقاق حتى يأكل بعضنا بعضا، ولذلك فإني أشجعك في الدعوة إلى الحرية والاستقلال، والعمل بأي دستور حزبي تراه، ولا اعتراض لنا على ذلك، ولكنني أحذرك من الصدام

المنارة للاستشارات

مع الهيئات والأحزاب السياسية الوطنية، فأبدي قبولا حسنا وشكر الشيخ غلى نصحه واهتمامه .." [58]

5/ موقفه الرافض لمناصرة فرنسا في الحرب العالمية الثانية :

على الرغم من المحاولات الفرنسية الكثيرة التي استهدفت جر بن باديس إلى صفها عشية اندلاع الحرب، واتصال شخصيات مرموق به المرات المديدة لما كان يحمله من تقدير لدى العلماء والنخبة، إلا أن الرجل ظل على موقفه، بل عرض القضية للتصويت في المجلس الإداري للجمعية، وكانت النتيجة مساندة رأي الرئيس الرافض لإرسال برقية الولاء أو ما اصطلح عليه بالبرقية الملعونة، وبحسب العديد من الروايات، فإنه رد على من رأى في مساندة فرنسا ضرورة للحفاظ على استمرار وبقائها وخاطب الجمع بقوله : والله لو قالت لي فرنسا أن أقول لا إله إلا الله ما قلتها، ولن أساند فرنسا ولو قطعتني إربا إربا [59]بل عبر الشيخ صراحة على ضرورة الكشف لفرنسا عن المواقف الرسمية، وأنه حان الأوان للتعبير الرسمي عن المقاطعة، وواصل كلامه بقوله : " وإنني لا أوافق على إرسال البرقية أبدا ولو قطعوا رأسي، لأن ذلك يعتبر قبولا مني بتجنيد أبناء هذه الأمة في الحرب، وكيف أوافق وألوان الاضطهاد ما تزال تنصب عن الأمة وتنال من دينها ولغتها وقوميتها، وأنا لا أنظر إلا إحدى الحسنيين : فإما حياة السعادة وإما الفوز بالشهادة .... [60]"

ويشاء القدر ويتوفى بن باديس في افريل من سنة 1940 قبل نهاية الحرب الثانية وهو في قمة شعبيته وعطائه، وبحسب الكثير من روايات طلابه، فإنه كان يفكر بجدية في القطيعة مع سياسة فرنسا الغير مبالية بحقوق الجزائريين والتي عبر عنها قبل ذلك بسياسة وخز الدبابيس، وقد صعد الرجل من لهجة خطابه ضد فرنسا قبيل وفاته، وكان دوما يحث في خطبه ولقاءاته على ضرورة الاستعداد وتسليح الناشئة بثقافة المقاومة، هذه الثقافة التي صبت في مسار إنجاح خميرة الثورة التحريرية المباركة .

المنارة للاستشارات

الإحالات المعتمدة في الدراسة :

1) نجيب الكيلاني، حول الدين والدولة، ط2، دار النفائس بيروت 1976، ص 10 عبد الله فهد النفيسي، عندما يحكم الإسلام، دار طه للنشر لندن، ص 4 .
2) د/ أحمد مريوش ،دراسة النزعة العقلانية والوطنية في منظومة بن باديس الإصلاحية 1912/1940، مجلة المصادر، لعدد7، الموافق ل: نوفمبر 2002، ص 83 .
3) جريدة المنتقد، العدد 1 الموافق ل : 2 جويلية 1925
4) يقول الشيخ الإبراهيمي أن ميلاد الجمعية في هذا التاريخ كان تحد منا ضد سياسة فرنسا التي لم تحترم مشاعر الجزائريين وأشار إلى ذلك بقوله : رجعت إلى الجزائر في أوائل 1920 على نية القيام بعمل علمي عام يعقبه عمل سياسي، فوجدت الجو أصلح مما تركته سنة 1911 .....فاتفقت أنا وجماعة من إخواني العلماء الأحرار على أن نبتدئ بإكمال الاستعداد في الأمة وقررنا الوسائل المؤدية إلى ذلك، وجاءت سنة 1930 حدا فاصلا بين الماضي والحاضر ففيها تم للاحتلال الفرنسي من العمر مائة سنة وأقامت فرنسا المهرجانات ابتهاجا بذلك وسخطت الأمة العربية الإسلامية على ذلك .... واستغلنا نحن ذلك كله في إثارة نخوتنا وإيقاظ إحساسها وإكمال استعدادها للعمل للمزيد أنظر : الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 5، دار الغرب الإسلامي بيروت 1997، ص 167 .
5) علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي من 1925 إلى 1940، ترجمة محمد يحياتن، مطبعة دار الحكمة الجزائر 1999 / ص 170 .
6) للمزيد أكثر حول حركة الشبان في تونس راجع : شارل أندري جوليان، المعمرون التونسيون وحركة الشباب التونسي، تغريب محمد مزالي، ط2، الدار التونسية للنشر 1985 .
7) مازن صلاح مطبقاني، عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، ط2، دار القلم دمشق 1999، ص 32 .
8) الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة، ط2، دار المعارف للطباعة والنشر 1990، ص 45 .

المنارة للاستشارات

9) J.désparmet :contribution à l histoire contemporaine de l Algérie :la politique des oulémas Algériens :1911/ P354 :juillet1939 :Afrique française :in :1937

10) الشيخ محمد الإبراهيمي، أنا، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، العدد 21، سنة 1966 . ص 142

12 / حمد الجاسر، رحلة التميمي التونسي إلى الحج، مجلة العرب، الأعداد 7و 8، السنة 16، الموافق ل : 1982، ص 561 .

13 من مطبوعة أفادني بها أحد أقارب الشيخ علي مرحوم بعنوان : لمحات من حياة الشيخ بن باديس، ص 4

14 مقابلة خاصة مع الشيخ أحمد حماني بتاريخ، 11/ 01/ 1984.

15 جريدة المنتقد جريدة أسبوعية أسسها بن باديس بقسنطينة في 2 جويلية سنة 1925 ،و اسند إدارتها إلى أحمد بوشمال وهي جريدة إصلاحية تعبر على لسان الشباب الجزائري الناهض صدر منها 18عدد، وتوقفت عن الصدور بتاريخ 29 أكتوبر 1925 للمزيد أنظر : محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980، ص 52 .

16 مجلة الشهاب، ج1، ألمجلد 11، أفريل 1935 .

17 جريدة الصراط السوي، العدد 15، الموافق ل :25 ديسمبر 1933 .

18 رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط5 المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار رغاية الجزائر 2001، ص 183 .

19 أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900/ 1945 ،ج3، ط5، دار الغرب الإسلامي بيروت 2005، ص 17

20 مريوش ،الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية، ط1، مطبعة دار هومة 2007، ص 173 .

21 للمزيد أكثر عن فحوى القرار راجع : سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ص 25 .

22 / للمزيد أكثر حول تفاصيل الحادثة أنظر :الشيخ أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس، ط1، مطبعة البعث قسنطينة 1984، ص 93 .

المنارة للاستشارات

23 / جريدة النجاح، العدد 1911، الموافق ل: 14 أكتوبر 1936 .

24 / عبد الرحمان بن ابراهيم بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، الجزء الثاني، 1936، 1945، ط3، منشورات السائحي الجزائر 2010، ص 111 .

25/ مجلة الشهاب، ج6، م 12، سبتمبر 1936

26/ مريوش، بوادر الانشطار في فكر النخبة الليبرالية الجزائرية وانعكاسها على القضية الوطنية ما بين 1919/ 1943، مجلة حوليات محبر التاريخ والجغرافيا، العدد2 الموافق ل : يوليو 2008، ص 85 .

27/ عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط2، دار الغرب الإسلامي بيروت 2005، ص258 .

28 / مريوش، الشيخ العقبي، ص 190 .

29 / مجلة الشهاب ،جزء 1، مجلد 12، أفريل 1936 .

30 / مجلة الشهاب، ج5، م7، الموافق ل : ماي 1931

31 / نفســـــه ،ج12، م 12، فيفري 1937 .

32/ محمد الميلي، بن باديس وعروبة الجزائر، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980، ص 159 .

33 / سعد الله، الحركة الوطنية، ج 2، ص 436 .

34 / الميلي، المرجع السابق، ص 86

35/ نفســـــه، ص 71 .

36 / عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ط1، دار ومكتبة الشركة الجزائرية 1968، ص 89 .

37 / كتبت مجلة الشهاب تشيد بخصال الأمير وخدمة الجزائر قائلة :" إن الأمير خالد رجل قومي يعتز بقوميته ومسلم يحمل غيرة صادقة على دينه، كان صلب الرأي قوي الإيمان صريح القول دافع هن وطنه حتى فارقه وذهب ضحية عقيدته وجهاده ودفاعه ..." للمزيد أنظر الشهاب، ج12، م 11، ماي 1936

38/ محوظ قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919/ 1939، ج1، ترجمة أمحمد بن البار، دار الأمة الجزائر 2011، ص 479 .

39 / مجلة الشهاب، ج6، م 13، الموافق ل :أوت 1937 .

40 / جريدة البصائر، العدد 115، الموافق ل : 27 ماي 1938 .

المنارة للاستشارات

41 / مجلة الشهاب، ج7، م 13، سبتمبر 1937

42 / نفســـــه .

43 / عبد الكريم بوصفصاف، حركة محمد عبده وعبد الحميد بن باديس وأبعادها الثقافية والاجتماعية والسياسية 1849 /1940، ج2 ،ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 2008، ص 314 .

44 / أحمد توفيق المدني، آثار الأستاذ أحمد توفيق المدني، محاضرات في اللغة والفكر والتاريخ، المجلد 10، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع الجزائر2010، ص 61 .

45 / مجلة الشهاب، ج7، م 13، سبتمبر1937 .

46 / جريدة البصائر، العدد 92، الموافق ل: 24 ديسمبر 1934

47 / مجلة الشهاب، ج7، م 13، سبتمبر 1937 .

48 / من مطبوعة علي مرحوم، ص 11 .

49 /مجلة الشهاب، ج7، م 13، سبتمبر 1937 .

50 / مقابلة خاصة مع الشيخ علي المغربي بمسجد بن باديس بالعاصمة بتاريخ 27 / 05 / 1985

51 / جريدة البصائر، العدد 71، الموافق ل :18 يونيو 1937

52 / جريدة البصائر، العدد 43، الموافق ل :13 نوفمبر 1936

53 / الشيخ محمد خير الدين، مذكرات الشيخ محمد خير الدين ،ج1، ط1، مطبعة دحلب الجزائر 1985، ص 120 .

54 / مجلة الشهاب، الجزء 1، المجلد 12، أفريل 1936 .

55/ عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830 ،1962، ط1، مطبعة دار هومة 2003، ص377 .

56 / سعد الله، تيارات اليقظة والإصلاح في المغرب العربي، مجلة المصادر، العدد 8، الموافق ل :ماي 2003، ص 98 .

57 / باعزيز بن عمر، من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، ط2، متيجة للطباعة 2008، ص 85 .

58 / خبر الدين، مذكرات، ج1، ص 301

59 / مقابلة شخصية مع الشيخ محمد خير الدين بمنزله بئر خادم بتاريخ : 10/25/ 1985

60 / من مطبوعة علي مرحوم، ص 15 .

المنارة للاستشارات